المرجعيات المؤسسة للدولة الجزائرية عند تيارات الحركة الوطنية

د) فقير محمد راسم / جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
mohammedracim@hotmail.fr

ملخص:

إن الطموح إلى الاستقلال تأكد أولا في القول قبل أن يصبح حقيقة فعلية، بحيث يعود أصول تشكل (الحركة الوطنية إلى عهد المقاومات المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي، قائمة الانتفاضات هي طويلة جدا نحصر أهمها فيما يلي: مقاومة الأمير عبد القادر، أحمد باي، بومعزة، في سنة 1871 تم انضمام كل منطقة القبائل إلى النداء الذي دعى إليه المقراني و الشيخ بن حداد و في سنة 1875 شهدت جاء دور منطقة الزيبان للانتفاضة أما في سنة 1879 شهدت انتفاضة الأوراس بقيادة محمد أمزيان، 1881 قام المرابط بوعمامة بتثوير أول سيدي الشيخ و كل الجنوب الغربي.

لقد كان المسار الثوري متسارعا الناتج عن التجنيد و التسييف الذي شهدته العشائر، القبائل، الزوايا، المساجد و كل الأشكال المرابطية.

إن التعددية القبلية التي عرفتها الجزائر حرمتها من تشكيل وطن، كما أنها لم تتمكن في هيكلة دولة مندفعة نحو المركز، نقطة ضعفها تمكن في تشتت قواها، لقد ظلت القبائل دوما تواجه السلطة المركزية بحيث أن الأمير عبد القادر لم يعثر على دولة مهيكلة تمنحه الاعتراف بتسييرها، في هذه الظروف تشكلت الحركة الوطنية مع أبرز تياراتها المتكونة من نجم شمال إفريقيا الذي تأسس بباريس سنة 1926 و فيدرالية النواب الأهالي سنة 1927 و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 والحزب الشيوعي سنة 1936.

إن الأطروحة الدولة الجزائرية و الاستقلال الجزائر عرفت تطورا كبيرا بفضل النشاطات السرية لحزب الشعب الجزائري و جمعية العلماء و الأشراف و نواب بيان الحزب الشيوعي لفحات عباس.

أخيرا لقد ساهمت الاتجاهات الوطنية الثلاثة في بلورت مفهوم الدولة الجزائرية نحو الحداثة، وتحويل مقاومة الجزائريين من الحالة الريفية الشعبية إلى الحالة المدنية، السياسية و الوطنية.

Abstract

The aspiration to independence is first confirmed before it becomes an actual reality, so that the origins of the national movement come back to the era of armed resistance against the French occupation. The list of uprisings is very long, the most important of which are the following: the resistance of Prince Abdelkader, Ahmed Bey, 1871 The entire Kabylie region joined the appeal called by Al-Muqarani and Sheikh Bin Haddad. In 1875, the Zayyan area witnessed the uprising. In 1879, the uprising of the Oras, led by Muhammad Amazian, took place in 1881. The revolutionary track has been accelerated by the recruitment and oppression witnessed by tribes, tribes, corners, mosques and all Almoravid forms.

The tribal pluralism that Algeria has known has not prevented it from forming a homeland, nor has it been able to structure a state that is moving toward the center. Its weakness has been able to disperse. The tribes have always faced central authority, so that Prince Abdelkader has not found a structured state that allows him to recognize its conduct. In these circumstances, the national movement was formed with the most prominent currents of the North African star, founded in Paris in 1926, the National People's Congress in 1927, the Association of Algerian Muslim Scholars in 1931, and the Communist Party in 1936. The thesis of the Algerian state and independence Algeria has been greatly developed thanks to the covert activities of the Algerian People's Party, the Association of Scholars and Supervisors, and the deputies of the Communist Party of Fatah.

Finally, the three national trends contributed to crystallizing the concept of the Algerian state towards modernity and transforming the resistance of the Algerians from the popular rural situation to the civil, political and national situation.

الكلمات المفتاحية: الوطنية الحركة الوطنية ؛ القبيلة ؛ المقاومة ؛ المرجعية ؛ الحزب ؛ الاستعمار .

مقدمة

إن الباحث في التاريخ الجزائري بشكل علمي ونقدي، يلاحظ أن الجزائريين لم يخضعوا يوما أمام التعسف الاستعمار الفرنسي والدليل على ذلك الوتيرة المتسارعة والمتعاقبة للانتفاضات الشعبية التي سعت لتسييف وتجنيد العشائر والزوايا ودعوتهم للجهاد في سبيل الله

ضد "الكفار" لأجل الحفاظ على الإسلام، هذه الانتفاضات كانت ذات طابع وطني بالرغم من أن هذا الشعور لم يكن بعد مرسخا في مفهومه الحديث للكلمة.

إن الطابع القبلي للجزائر طالما شكل عائق في تشكيلها لفكرة الوطن، فالبلد كان عبارة عن منطقة نابذة أو غبار إنساني poussière humain ،عجز في تأسيس دولة مندفعة نحو المركز، نقطة ضعفه ومنذ زمن طويل تمثلت في تشتت قواه، كل قبيلة كانت تعيش في نظام اكتفاء ذاتي القبائل كانت دوما تسعى لمقاومة السلطة المركزية الفرنسية، هذه الأخيرة غالبا ما كانت مستبدة ففي كل مرة كان الجيش يتدخل لإعادة تجديد الولاء وتقوية السلطة وفي هذا الصدد يقول توكفيل أنه في ظل غياب هياكل وسيطة تصبح الدولة الأمة آلة إدارية ممتدة machine administrative tentaculaire يتواجد أمامها حشد غير منظم من الأفراد غير قادرين لإسماع صوتهم أمام بيروقراطية لا إنسانية.

لقد كان التاريخ الجزائري مفعما ومكمأ بمراحل انتقال فارغة أدت إلى تصدع وتشتت المقاومة الذاتية للجزائريين بسبب الغزو المحتل على سبيل المثال الأمير عبد القادر لم يعثر على دولة مهيكلة تمنحه الاعتراف وتقبل به لادارتها، فكان لزاما عليه الكفاح ضد المحتلين و في نفس الوقت التفاوض مع القبائل و لاقناعها بمده يد قوية للمساعدة الامر الذي جعله يمضي وقته في الاقناع اكثر من الكفاح ، بعض القبائل انضمت اليه عفويا و البعض الاخر حاول الاطاحة به ، الامر الذي انهكه كثيرا و اضطر به لارساء البوادر الاولية لتشكيل الوطن الجزائري، بالمقابل ذلك اغتنم المستعمر الفرصة للرهان على الصراعات الداخلية بين القبائل التي لم تحقق ابدا اجماعا لتشكيل جبهة جماعية للحرب ضد فرنسا باستثناء الزوايا التي استطاعت تجاوز بعض خصومات الزعامة لتصل الى تحقيق زاوية موحدة وفق هدف مشترك طرد الكفار من ارض الاسلام.

انطلاقا من هذه المعطيات لم يتبقى للجزائريين في مواجهة الاستعمار سوى نزعتين عاطفتين وغريزتين : حب الوطن le patriotisme و الوطنية nationalisme و اذا كانت بوادر المقاومة قد ظهرت في الريف و القرى و بزعامة عصبية رجال الدين و الزوايا السبب في ذلك راجع الى ان الفلاحين و الدشرهم الذين عانوا اكثر من غيرهم من الاستعمار الذي سلبهم اراضيهم و بعد ذلك انتقلت المقاومة الى المدينة تبناها شخصيات وطنية علمانيين و اسلاميين حاولا تشكيل نواة الدولة الجزائرية فبالنسبة لابن باديس تتميز الجزائر المسلمة باللغة العربية والدين من غير ان يعترض على الجنسية الفرنسية السياسية المتميزة عن الجنسية الوطنية la nationalite national اما بالنسبة لمصالي الحاج فقد كان له نفس التعريف بالوطن و لكنه رفض اية جنسية اخرى ماعدا الجنسية الجزائرية بينما فرحات عباس اعتبر ان الجنسية و مفهوم الدولة الجزائرية و وجودها يتاسس على اتفاق حر ة ارادي معتبرا ان كل من الاستعمار والقومية الاسلامية عائقين امام ولادة جنسية جزائرية ، تمخض عن هذه التيارات الوطنية الثلاثة.

طابع و نوع من الراديكالية و اليعقوبية jacobinisme و ثقافة تحدي و قطيعة عنيفة مع مفهوم الدولة ، بحيث ان كل واحد من هذه التيارات لا يمكن تجزيئه عن الأخر، فإذا حاول احدهم الاستقلالية عن الآخر سيرتب عنه أزمة هوية، فإذا أردنا تهميش التيار الديني فإنه سيتمرد و يقول: " نحن الجزائر" وادا اردنا محو التيار الاندماجي سيؤكد بدوره و يقول: " نحن الجزائر" وفي نفس الوقت اردنا تصغير التيار الوطني سيقول نحن الجزائر ننتمي إلى عالم عربي، أمة المسلمين، الكل كان بحاجة تغيير المجتمع الجزائري و بعث فيه مقدار من الحداثة ورفض المجتمع التقليدي سواء بشكل علماني مفتوح أو بطريقة صماء عند الحركة المصالية أومقنع عند العلماء المسلمين الجزائريين.

إن ما ميز تيارات الحركة الوطنية هو ظهورهم في شكل مركزية قوية و يعقوبية تقليدية اتجاه الدولة الجزائرية.

لقد اعتبر هواري عدي أن الحركة الوطنية الجزائرية هي بمثابة حداثة سياسية، فالدولة هي شكل سياسي إداري مركزي لا تعرف أية قوة عليا من الخارج، كما أنها تفترض ولاء كلي لأفرادها من الداخل ، استنادا من هذا التعريف نستنتج أن لا إيطاليا في العصر الوسيط و لا الجزائر الاستعمارية قد شكلت فعلا دولا وطنية لسبب بسيط و هو أن أفراد العشائر و القبائل كانت تعيش في استقلالية كبيرة عن السلطة المركزية.

فالحركة الوطنية عي عبارة عن إيديولوجية تهدف لبناء إطار حياة جماعية بواسطة سلطة مركزية تملك احتكارا العنف و التربية معا إذن تعتبر الإيديولوليجية الوطنية ضرورية لأنها تهيأ الأفراد للمطالبة بهوية وطنية و إخضاعهم إلى سلطة مركزية باسم الوطن

الوطنية عي عبارة عن أثنية مركزية تتمتع بحدود جغرافية محمية من طرف دولة تمارس الرقابة على المجموعات الاجتماعية التي تعيش على ترابها هذا يعني خضوع السلطات الجهوية والتضامنات القبلية التي تقع أسفل الدولة Infra étatique في مسار تدجين واستبعاد كل أشكال السلطات و إجبارها الخضوع و الولاء إلى السلطة المركزية، هذه الآلية machinerie تفرض مبدأ الشرعية الذي يؤمن به الملايين من الأشخاص، لأن مسار تركز السلطة في القمة تقترض ويتطلب مشاركة سياسية فعلية، في حقل الدولة التي تخلق شرعية السلطة، بحيث أن البناء الوطني في أوروبا دار بالتوازن مع توسيع المشاركة السياسية التي قادته إلى المواطنة والحقوق المدنية.

- لقد ظهرت الوطنية في أوربا بعد ثورات بواسطة مؤسسات ضمنت ممارسة الحقوق المدنية.

- أما بالعودة إلى الجزائر فنلاحظ أنها عرفت وطنية صارمة مكونة من ثلاثة اتجاهات: الراديكالية، المصلحين، والإندماجيون.

استنادا مما ذكرناه سلفا تبين لنا طرح بعض الأسئلة وهي على النحو الآتي:

- كيف تم طرح مفهوم الدولة الجزائرية في منظور تيارات الحركة الوطنية، وما هو سياقه المجتمعي؟

- كيف ساهمت تيارات الحركة الوطنية في بلورة مفهوم الدولة الجزائرية من مستوى المقاومة القبلية والشعبية (patriotisme) إلى مستوى المقاومة الحضارية، السياسية والوطنية (Nationaliste)؟

I- البوادر الأولية والجنينية لتشكل مفهوم الدولة الجزائرية قبيل ظهور الحركة الوطنية

لقد شهدت الجزائر في الفترة ما قبل الكولونيالية ترييف عميق و شكل تنظيمي اجتماعي عرضي أكثر منه أفقي، بمعنى أن تنظيم المجتمع الجزائري كان إجتماعيا أكثر منه إداريا ومؤسساتيا، الأمر الذي جعل العلاقة بين الدولة و العشائر تقتصر فقط في مناسبة جمع الضرائب. عاشورة الزكاة، ففي الماضي الجزائري ما قبل الاستعمار لم يكن يربط المجتمع الجزائري أية علاقة مع السلطة المركزية، فالشعب لم يكن بحاجة إلى سلطة لكي تضمن أمنه، غذائه كما لم يكن بحاجة للإعلان عن وفاة ابنه أو والده أو وفاة جده أو طلب رخصة للذهاب إلى الحج على سبيل المثال، الأمر الذي أدى إلى غياب فكرة الدولة كمنظمة للعلاقات العشائرية أو كمعدلة للصراعات ، بالمقابل ذلك كان للمجتمع الجزائري ينتظم و يقوم خارج البنيات الجنينية للسلطة، كل عشيرة كانت تمتلك نخبها الأشراف و ممثليهم داخل محيط مستقل بواسطة أعراف بعدما قضى الاستعمار الفرنسي على أشكال التنظيم العشائرية، المرابطية و القبلية و اجتثت الثقافة الأصلية المجتمع الجزائري[1] بواسطة إصداره لمجموعة من القوانين العقارية يصفها بيار بورديو و عبد المالك صياد " بآلة الحرب " في كتابه الشهير" الإجتثات " 1964، اشهر هذه القوانين:

la loi de senatus consulte 1863 قانون سيناتوس كونسولت

la loi de varnier 1873 قانون فارني

la loi de cantonnement 1879 قانون الصفاء

هدف القوانين الثلاثة هذه إضافة إلى أخرى كان تتمثل في تحويل الملكية غير المجزأة الجماعية إلى ملكية فردية مجزاة هذا التحول في نمط الملكية حسب دائما بيار بورديو و عبد المالك صياد حقق ثلاثة غايات أساسية.

- ضرب الاستقرار الاقتصادي للقبيلة.
- ضرب روح المقاومة ضد الأجنبي.
- تسهيل انتقال الملكية من الجزائري إلى الأوروبي.

[1] M'hamed Boukhobza, Octobre évolution ou rupture ?, ED Bouchene 1989, page 21,22.

- ان تغيير نمط الملكية في الجزائر من 1830 إلى 1962 ساهم أيضا في فردنة الملكية والإخلال بنظام القبيلة و نزع قداسة الأرض.

- إن القوانين 14 جويلية 1865 المعروفة بـ *SENATUS CONSULTE* قد وضعت الأهالي خارج مشروع المواطنة الفرنسية و هذه الوضعية تعتبر في نظر الكثير من دارسي القانون بشاعة قانونية ، اذ كان هدف السلطات العسكرية مقتصرا على إخضاع الجزائريين لرقابة وتنظيم القوانين المدنية و السياسية الفرنسية و قد حاولت الدولة الاستعمارية تهميشي اللغة العربية من اجل القضاء على كل محاولة لتسييس الإسلام.

- من اجل التحكم في المجتمع الجزائري و من اجل الحد من اندماجه الاجتماعي التقليدي، فان المستعمر نفذ فعلين إداريين: أولهما الإقرار بالملكية الفردية للأرض و الذي لا يتوافق مع تقليد الترحال الخاص بالجزائريين ...أما القرار الثاني فيتعلق بمرسوم "كريميو" 24 أكتوبر 1870 والذي منح 35000 يهودي الجنسية الفرنسية ، مما أدى إلى انقسام اجتماعي بين الجزائريين المسلمين و اليهود. [2]

لم تكن الحملة الفرنسية اذن حدثا عسكريا و سياسيا فحسب و انما كانت الحملة أساسا حدثا ثقافيا و حضاريا اخذ بالنسبة للجزائريين شكل الصدمة الحضارية و هذا ما ذهب اليه الأستاذ سعد الله الذي أكد بان ما وقع سنة 1830 في الجزائر ليس احتلال فرنسا للجزائر ، بل هو احتلال العصر الحديث للعصر الوسيط او احتلال التقدم للتخلف فالانتصار الفرنسي هو أول وقبل كل شيء انتصار الحضارة الصناعية و التكنولوجية.

لم يكن من الممكن أثناء العقود الأولى الاستعمار ان يعلو صوت واحد فوق صوت المعركة، فالمستعمر الفرنسي كان منهمكا كلية في إستراتيجية السلب و النهب و اغتصاب الأراضي المغتصبة من 20.000 هكتار سنة 1841 الى 1.192.000 هكتار سنة 1901 و في الفترة ذاتها ارتفع عدد المعمرين من 37.374 الى 633.850 و في الجهة المقابلة فقد جرب الجزائريون كل أشكال الدفاع و التصدي وهدا ما أكده المؤرخ بن يمين ستور عندما يقول " انه منذ سقوط الوصاية العثمانية على الجزائر سنة 1830 و حتى سنة 1871 مارس الجيش الاستعماري الفرنسي سياسة محو الأطر الاقتصادية و السياسية التقليدية فتاريخ الجزائر أثناء هذه الفترة لهو إلى حد كبير تاريخ انتفاضات القبائل و المجتمعات القروية و الجبلية من اجل الاحتفاظ بأراضيها و معارضة اغتصاب الأراضي الجماعية من طرف الاستعمار.[3]

[2] Pierre Bourdieu, Abdelmalek Sayad, Le déracinement, ED de minuit, Paris, 1964 pp15, 16.

[3] جمال غريد "النخب والمجتمع في العالم العربي حالتا الجزائر ومصر"، مركز البحوث في الاقتصاد التطبيقي من أجل التنمية بالجزائر، 23-24-25 مارس، 2002، ص07.

لقد كان الاستعمار الفرنسي يهدف إلى تذويب التضامن القبلي و تفكيكه و هذا ما سعى إليه قانون sénatus consulte الذي ضرب روح الاندماج القبلي بواسطة تجزيئه للأراضي وتشكيل الدواوير و الدشر ففي سنة 1938 تم تجزئة 709 قبيلة جزائرية من مجموع 803 وتقسيمها إلى 1196 دوار، و في سنة 1956 من مجموع 803 قبيلة، ثمانية فقط بقيت مجزأة واحدة في مقاطعة الجزائر و سبعة في وهران.

منذ 1856 البلد كان مقسما الى منطقتين مناطق مدنية و مناطق عسكرية، لقد كانت الجزائر مهيكلة اداريا وفق نموذج فرنسي مقسمة الى ثلاثة أقسام و 5 قسم مجزأ بدوره الى عدة مقاطعات و كل مقاطعة الى عدة دوائر ففي الشمال الدولة الاستعمارية كانت تحتوي الى نمطين من الدوائر:

1- دوائر الممارسة في المراكز الكبرى الاستعمارية مسيرة من طرف رؤساء البلديات المنتخبين.

2- دوائر مختلطة أين يعيش غالبية الجزائريين مسيرة في غالب الأحيان من طرف القياد بينما الجنوب كان مسيرا مباشرة من طرف الجيش الفرنسي و بالتالي فان الأوروبيون كان يشكلون الطبقة المهيمنة و الشعب الأصلي أصبح ككتلة مهيمن عليهم نظرا للأصولهم الاثنية و الدينية يطلق عليهم بالعرب المسلمين أو الأهالي أو الرعايا ليس لهم الحق في الانتخاب.

ان الظروف المزرية التي عرفتها الفترة الكولونيالية جعلت من الأمير عبد القادر يدرك جيدا محيط فترته ، مما أدى به إلى محاولة إرساء قاعدة دولة عصرية بإلغاء الفوارق بين قبائل المخزن و قبائل الرعايا مع فرض عملة و رفع الضرائب و إنتاج الأسلحة و تحديث التنظيم العسكري و الإداري ، و في هذا الصدد يقول توكفيل" أن الأمير توصل بالنهوض بجيش l'odjak لقنه و علمه كيفية التمرد فالفروسية حسب الأمير عبد القادر لا تكفي وحدها بل لابد من جنود مشاة.

إن تنظيم الدولة التي أسسها الأمير عبد القادر لم يكيفها بالظروف الجغرافية لبلد شاسع فحسب بل أيضا بطريقة تسمح لها لمواجهة و تحدي إرادة المعمر الفرنسي ، الدولة التي شكلها الأمير تميزت بمركزية في اتخاذ القرار و تمركز السلطة السياسية العسكرية بين أيادي القائد، كما أن المساحة الشاسعة للجزائر أجبرت الأمير لاتخاذ و تبني إدارة لا مركزية ، الحكومة المركزية كان يترأسها الرئيس الأول، الحبوس و الشؤون الخارجية كانت ممنوحة إلى كاتبين للدولة بينما المكلف بالمالية العامة كان يشرف على مراقبة تسيير مالية الدولة و السلطة القضائية كان يمارسها المجلس الاستشاري المكون من 11 عضو يترأسه قاضي أو قاضي القضاة ، أما على المستوى الإداري و العسكري

البلد كان مجزأ الى 8 إمارات كل إمارة يتولها خليفة و كل إمارة في حد ذاتها مجزاة الى عدد مختلف من المناطق المسيرة من طرف الاغات و كل منطقة مجزاة الى قاعدات ، الخليفة كان يتم تعيينه لمدة غير محددة بينما الأغا لمدة سنتين قابلة للتجديد.[4]

لقد عرفت الجزائر انتفاضات قبلية دون ان تشكل مقاومة جماعة وطنية فبعد انهزام الجهة الغربية l'oranie عسكريا بعد خمسة عشرة من المقاومة جاء دور منطقة القبائل سنة 1852 تليها بعد ذلك المقاومة الكبيرة التي عمت كل البلاد سنة 1870 وآخر انتفاضة كانت في الأوراس سنة 1916.

هذه الانتفاضات الشعبية جعلت من المجتمع الجزائري منهكا بعد أربعين سنة من الحروب واستلاب الأراضي ضف إلى ذلك الأوبئة والمجاعة.

إن الثورة الشعبية التي قادها كل من محداد 1871، بوعمامة 1881 لالة فاطمة نسومر...الخ، هذه الثورات قادها أشخاص خيمة كبيرة بهدف بسط هيمنة جماعة دينية وليس بهدف بسط هيمنة وطنية مختلفة عن المستعمر، لأن الوطنية في هذه المرحلة من الثورات الشعبية لم تكن بعد متجدرة في الوعي، فقد كان يقال " الرومي: لتحديد هوية الفرنسي، كلمة الرومي مستمدة من الروم البيزنطية، إن الوطنية تفترض الاعتراف بالمواطن عالميا و ليس اعتباره مجرد إنسان بربري و أهلي.[5]

إبتداءا من القرن 20 أتخذ الشعور الوطني شكلا آخر من طرف شرائح و نخب مثقفة ومتحضرة كتبوا و اهتموا بتاريخ بلادهم سواء باللغة العربية. أو من طرف مثقفون آخرون نادوا باللغة الفرنسية الاندماج في المجتمع الفرنسي، و ليس من الصدفة في شيء أن يتبنى مثقفون الحركة الوطنية (مصالي الحاج، فرحات عباس، إبن باديس) جميعهم الوسائل والأساليب التنظيمية و التعبيرية السائدة في فرنسا سواء تعلق الأمر بالمجتمع المدني أو المجتمع السياسي، فعلى المستوى السياسي مثلا و في منتصف الثلاثينيات أصبحت كل تيارات الرأي العام الجزائري ممثلة في الجمعيات و الأحزاب وهكذا فقد تأسس تباعا " نجم شمال إفريقيا مارس 1926 وفيديرالية منتخبي الأهالي سبتمبر و جمعية العلماء المسلمين ماي1931 والحزب الشيوعي الجزائري اكتوبر 1936 فبدءا من هذه التواريخ تغير الأمر من الكل إلى الكل فمنهم من تحدث عن النهضة (أبو القاسم سعد الله، و محمد حربي) و منهم من تحدث عن الهيكلة المعادة للمجتمع (عبد القادر جغلول) أما دي بارمي Desparmet الذي عايش المرحلة ودرس مستجداتها فقد كان أكثر وضوح و دقة إذ يسمى هذا العهد بعهد الاندفاع الوطني والاتجاه نحو الثورة السياسية و الإصلاح الديني و الأخلاقي بالإضافة إلى النهضة الأدبية والعلمية.[6]

[4] Mahfoud Bennoune, Esquisse d'une Anthropologie politique, ED ENAG, Alger, 1988, p16-18.
[5] Mohamed Harbi, l'Algérie et son destin, croyant ou citoyen, ED Arcantere, 1992, p27.
[6] جمال غريد، مرجع سبق ذكره. ص09

إذن بعض الانتفاضات القبلية، خطاب سياسي ظهر سنة 1920 حوّل المقاومة من حالتها الريفية و العسكرية التي سادت القرن 19 إلى الحالة الحضرية و السياسية في القرن20 تبناه ثلاثة تيارات بارزة من الحركة الوطنية: المصلحين الدينين، الراديكاليون الوطنين، و العلمانيين الاندماجين.

لقد عرفت الجزائر قبل ثورة 1954 يعني في ظل الحكم الاستعماري تعددية حزبية لا تقتصر على العنصر الأوربي بل مست كذلك سكان الأهالي التي انطلقوا في تكوين أحزاب سياسية منذ بداية القرن 20 نتيجة بعض التحولات التي بدأ يعرفها المجتمع الجزائري كبروز قوى اجتماعية جديدة و انتقال المقاومة من الريف إلى المدينة و تغيير أشكال النضال من طابعها العسكري الريفي إلى أشكال أكثر عصرنه بالاعتماد جزئيا على الأحزاب السياسية و الجمعيات والأنشطة التنظيمية الأخرى كالمسرح، الإعلام و الفن و العمل الجمعوي.

إن التحول في أشكال المقاومة حسب ناصر جابي من الريف إلى المدينة تحقق بعد أن تم تحطم شبه آلي للمؤسسات التقليدية الريفية القبلية، هذا الوضع الذي جعل بوادر الحزبية تنطلق من بعض المدن كالعاصمة، قسنطينة، تلمسان، و سطيف.

إن الهجرة الواسعة و احتكاك الجزائريين بقوة كمجندين و عمال في فرنسا مع الحركة العمالية الفرنسية و حواضرها الصناعية بمناسبة الحرب العالمية II التي ساهمت في تكوين قاعدة فعلية لظهور الأحزاب السياسية و مفهوم للدولة، أين تم تكوين أول حزب سياسي ذي قاعدة شعبية في المهجر و فرنسا بالتحديد يغلب عليه الطابع العمالي ففي سنة 1926 تأسس حزب تجمع شمال إفريقيا بمشاركة بعض القيادات التونسية و المغربية لقد ساهمت فترة الحرب العالمية في انتشار الممارسة السياسية الحزبية التعددية ليس في المهجر فقط بل أيضا على التراب الوطني كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة 1931 و الحزب الشيوعي، و التيارات الليبرالية الأخرى المتمثلة بأكثر من حزب و شخصية سياسية مثل بن جلول و فرحات عباس.

استمرت الأوضاع على ما هي حتى نهاية الأربعينات و بداية الخمسينات حيث بدّت علامات القصور على التجربة الحزبية في ظل الوضعية الاستعمارية في الجزائر كالتزوير الانتخابات، الاعتقالات، النفي مما أدى إلى ظهور أفكار جذرية تنادي بالعنف الثوري كحل تاريخي لمسألة الوطنية بدلا من الحلول السياسية.[7]

II- مرجعية مفهوم الدولة عند التيار الوطني الراديكالي

لقد تأسس هذا التيار سنة 1920 في باريس من طرف عمال مهاجرين اغتنموا فرصة توفر الحريات العامة في فرنسا للتعبير غن مطالب الاستقلال ومجلس وطني سيادي، لقد كان يمثل هذا التيار وجه رمزي يطلق عليه مصالي الحاج الذي استفاد من الدعم الذي قدمه إياه الحزب الشيوعي الفرنسي والنقابة العمالية.

[7] Mahfoud Kaddache, Histoire du nationalisme Algérien, 2ED ENAL, Alger, 1988, p3.

لقد تربى أعضاء حزب نجم شمال إفريقيا L'ENA في وسط عمّالي فرنسي تلقنوا فيه النقد الماركسي للنظام الاستعماري وأخذهم خاصة فكرة رفض استغلال الشعوب المستعمرة ونهب خيراتهم وفق المبدأ اللينيني والولصوني في حقوق الشعوب في تدبير شؤونها بنفسها إن الأفكار السياسية لحزب نجم شمال إفريقيا لم تتعرف عليها الجزائر إلا بعد مشروع Blum-Violette سنة 1936 التي منحت 20000 من الأهالي صفة المواطنة، لقد كان الراديكاليون ضد هذا المشروع عكس المصلحين والثقافويين بحيث كان مصالي يصرّح "لا أريد أن أكون فرنسيا، أريد أن أبقى جزائريا في جزائر مستقلة، هذا ما جعل الإيديولوجية السياسية للتيار الراديكالي ترفض الرأسمالية باتهامها استغلال الشعوب المستعمرة، بعد ذلك تحوّل حزب نجم شمال إفريقيا إلى حزب الشعب الجزائري الذي جلب إليه العمّال المهاجرين وطبقات ما تحت البروليتارية الصناعية والريفية وأيضا الفلاحين بدون أراضي وأيضا الشرائح الاجتماعية الفقيرة التي ولدت في ظل النظام الاستعماري محتفظة بذاكرة نزع ملكية الأراضي الفلاحية خلال القرن 19، بعد ذلك الأحزاب التي توالت وانبثقت مثل حزب الشعب الجزائري MTLD وFLN دخرت طاقتها في توجيه حقد كبير اتجاه فرنسا، مما ساهم في ميلاد شكل أسطوري للشعب وتقديسه كعنصر مشكل للحركة الوطنية الجزائرية مثلما عبر عليه FLN، هذه الشعبوية انضم إليها الثقافويون.

يقول محمد حربي إن نمو النزعة الوطنية يعود بالدرجة الأولى لاضطهاد الاستعمار . لكن الذي عجل يقظة الوعي القومي لدى الجزائريين هو ثورة أكتوبر الروسية وميلاد الحزب الشيوعي والفرنسي، هذان الحدثان ساهما إلى حد كبير في خلق قوة سياسية نشطة في المهجر[8]، لقد كان يتكون حزب نجم شمال إفريقيا من تيارين سياسيين:

الأول كان يطمح إلى تحقيق استقلال الجزائر عن طريق كفاح الطبقة العاملة بالإضافة إلى إقامة نظام اشتراكي في الجزائر ما بعد الاستعمار والتحالف مع حركة العمال الفرنسي والحزب الشيوعي الفرنسي فضلا عن التحالف الاستراتيجي مع الشيوعية العالمية والمضطهدين منم طرف الاستعمار وكان على رأس هذا التيار حاج علي عبد القادر وهو أول قائد لحركة نجم شمال إفريقيا

التيار الثاني كان يمثله مصالي الحاج المعروف شعبيا الذي كان يؤمن بالأمة الجزائرية، ومن المبادئ الأساسية لإيديولوجية الراديكاليين نجد ما يلي:

- تأسيس حكومة وطنية ثورية وتكوين جيش وطني.
- حق الجزائريين في الترشح لكل المجالس.
- حق الدولة الجزائرية في مراقبة وتسيير كل البنوك والمناجم وخطوط السكك الحديدة.
- إعادة الأراضي للفلاحين.

[8] Lahouari Addi « Le Nationalisme Algérien : origine et perspective» , le quotidien d'Oran, 4 mai, 2009.

- إجبارية التعليم باللغة العربية.

- اعتراف حق إنشاء الاتحادات النقابية وتشجيع الفلاحين ماليا.

حسب محمد حربي، من الممكن وصف إيديولوجية مصالي بالشعبوية والعفوية والعربية الإسلامية وتعزيز قداسة الشعب، فباعتبارها إيديولوجية شعبوية ترى بأن الصراع ضد الاستعمار يجب أن لا يكون على أساس طبقي فالأمة الجزائرية تحتاج إلى مجهودات شعبها بعبارة أخرى يجب إعطاء الصراع الطبقي، أما كونها إيديولوجية عفوية لأنها لم تحدد بدقة إستراتيجية واضحة للعمل، بل كيفت نفسها مع التطور للقوى الاجتماعية، أما وصفها بالإيديولوجية العربية لأنها اعتبرت أن الإسلام كأساس للشخصية الوطنية، وبهذا استعمل الراديكاليون الدين والهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري كوسيلة لإثبات شرعية الفروق الثقافية والسياسية بين الأمتين الفرنسية والجزائرية، ونظرا لموقفه الراديكالي تم تجاهل حركته من طرف السلطات الفرنسية ومنعها من ممارسة أي نشاط سياسي لكن ذلك لم يقلل من عزيمة مصالي الحاج من مواصلة كفاحه السياسي فكون سنة 1937 حزبا جديدا أطلق عليه اسم حزب الشعب الجزائري PPA، لكن تم توظيفه مرة أخرى لحل حزبه سنة 1939، بعد الحرب العالمية II أعاد مصالي تأسيسه للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية M.T.L.D كغطاء سياسي لنشاط حزب الشعب المحظور وفي الوقت نفسه أنشأ الراديكاليون ما يعرف بالمنظمة الخاصة (L'OS) التي هي عبارة عن الجناح العسكري السري PPA-M.T.L.D كانت مهامها تتمثل في التحضير للكفاح المسلح.[9]

III- مرجعية مفهوم الدولة عند تيار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

إن الدولة الجزائرية التي تصورها العلماء عبارة عن أمة إسلامية مشكلة من أفراد يتجمعون نحو العمل الجماعي ويتجردون من الروابط القبلية ومن الولاء للأنساب، ظهرت الجمعية في بداياتها الولى سنة 1925 وصارت أقوى في سنة 1931 من طرف الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقد لقبو أنفسهم "العلماء المصلحين" وكانت ألسنتهم الصحفية خصوصا "الشهاب" و"البصائر" منذ 1936 تنشر رسالتهم في جميع الأرجاء وتوسع دائرة الكفاح، جاء تأسيس هذا التيار نتيجة تشبعه بالفكر الديني الإصلاحي بالمشرق مع بروز جمال الدين الافغاني و محمد عبده الذي كان قد قام برحلة إلى الجزائر خلفت صدى كبيرا سنة 1903 طوّر جميع العلماء بالجزائر مثل العودة إلى الصفاء الأصلي للاسلام وللعقيدة والانفتاح على العلوم العقلية والدفاع الشديد عن الإسلام واللغة العربية وضد ما كان في الاعتقادات والممارسات الطرقية من شرك في رأيهم وأيضا معارضة الأولياء المتحالفين منذ زمن بعيد مع النظام الاستعماري وكل ممارسة دينية (مثل التي كان ينصح بها أشياخ الطرق) تمنح الأولية للقهر بوصفه فعلا فوق طبيعي، لقد لعب العلماء في الجزائر كما في المغرب دورا حاسما في تهيئ الوطنية وإضعاف الزعماء الطرقيين المشتبه في علاقتهم مع النظام الاستعماري. لقد صنع العلماء وطنية لا تنفصل عن الإسلام ويمكن أن تسمى هذه الوطنية

[9] عبد الناصر جابي، الجزائر: الدولة والنخب، منشورات الشهاب، 2008، ص62-63.

وطنية عربية مسلمة، إن الرجوع إلى الأصول إلى عهد الرسول وخلفائه المباشرين الذي يشكل موضوعا رئيسيا في الفكر والرسالة الذين نشرهما الحلقات الباديسية وبإيجاز فإنه سينبغي استرجاع عصر يرى مريدو بن باديس وكل الوطنيين العرب بمن فيهم العلمانيون بالمشرق أنه سّير الدين في مرحلة أولى سعيا كرس بدوره كل طاقته لنشره والدفاع عنه، إنها قومية عربية تستمد ديناميتها من الإسلام بوصفه إبداعا تفرد به العرب، وهذه الوطنية تتعلق بوطن غير أنها تدمجه في مجموعات أوسع يحددها التاريخ، اللغة والدين أيدها مجهود نشيط في مجال التربية والتعليم، ففي الجزائر فتح العلماء مدارس حرة من أجل إعطاء تعليمهم ، 90 مدرسة سنة 1947، 181 مدرسة سنة 1954، وعشية انطلاق المقاومة المسلحة، كانت وطنية جمعية العلماء قد انتشرت بشكل واسع في مجموع المجتمع الجزائري.[10]

لقد عرف ابن باديس الوطن بمعايير ثقافية، ميّز فيه بين الوطنية الإثنية (الجنسية القومية) والمواطنة الساسية الأولى هي دائمة بينما الثانية هي ظرفية.

أخيرا يمكن القول أن الثلاثية التي أطلقها بن باديس الإسلام، العربية والوطن في شعاره الشهير "الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني" تشكل عناصر أساسية لمفهوم الدولة الجزائرية وهويتها وبالتالي فإن الجزائر يستحيل إدماجها في فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ذلك.

IV– مرجعية مفهوم الدولة عند التيار الاندماجي الذي أسسه فرحات عباس

لقد استلهم التيار الاندماجي الذي أسسه فرحات عباس المرجعية و المبادئ السياسية للجمهورية الفرنسية لتحديد مفهوم الدولة الجزائرية يحض فيها السكان الأهالي بحق التمثلية في البرلمان الفرنسي والمساواة مع الأوربي في جميع المجالات في إطار جزائر فرنسية يتمتع فيها المسلمين بمواطنتهم الكاملة واحترام لديانتهم وهذا ما سعى إليه فرحات عباس وسعدان وابن جلول الذين خلقوا "فيدرالية نواب الأهالي" التي طالبت الاندماج في المجتمع الفرنسي في إطار احترام قانون المسلمين في المجلس الوطني الفرنسي حتى يتسنى لهم التوجه مباشرة إلى الرأي العام الباريسي[11]، عن هذه الحركة يقول وليام، ب. كواندت William B.Quandat ما يلي "إن السياسيين الجزائريين الليبيراليين الذي أسسه أول مجموعة وطنية معتدلة دخلوا مهنة السياسة بصفة منظمة في الثلاثينات من هذا القرن 19م إن الوسائل التي تبنوها من أجل الوصل إلى أهدافهم هي الإقناع والعرائض المطلبية بالإضافة إلى ذلك كانوا ملتزمين إلى حد بعيد بالعصرنة...." أكبر دليل على هذا ما صرح به فرحات عباس: "نحن الورثة الشرعين لرجال 1789 على المستوى الاستعماري".

[10] عبد الله الحمودي، الشيخ والمريد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2000 ص95-96.
[11] Mahfoud Kaddache, Jilali Sari, l'Algérie dans l'histoire, OPU 1989, pp94-95.

خاتمة:

أخيرا ما يمكن استخلاصه أن الحركة الوطنية الجزائرية قد تبنت في مرجعياتها الفكرية مشروع حداثة سياسية كون أن الجزائريين ولأول مرة في القرن العشرين تبنوا مرجعيات عالمية حديثة مستلهمة من الإرث الجمهوري الفرنسي، كما توفرت في الحركة كل الشروط الموضوعية لقيام حركة ثورية بالمعنى الماركسي، لأن السياق الدولي في تلك الفترة (الثلاثينات من القرن العشرين) ميزته الماركسية التي دعت فيها الطبقات البروليتارية والشعوب المضطهدة للقيام بثورة ضد النظام البرجوازي. كما حملت مرجعية الحركة الوطنية الجزائرية مشروع تغيير المجتمع الجزائري وبعث فيه مقدار من الحداثة ورفض المجتمع التقليدي سواء بشكل علماني راديكالي عند الحركة المصالية أو بشكل مقنع عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أو بشكل اندماجي عند الحزب الشيوعي، بحيث أن كل تيار وطني كان يقول نحن الجزائر.

قائمة المراجع

المراجع باللغة العربية:

1) الحمودي عبد الله ، الشيخ والمريد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2000.

2) جابي عبد الناصر ، الجزائر: الدولة والنخب، منشورات الشهاب، 2008.

3) غريد جمال "النخب والمجتمع في العالم العربي حالتا الجزائر ومصر"، مركز البحوث في الاقتصاد التطبيقي من أجل التنمية بالجزائر، 23-24-25 مارس، 2002.

المراجع باللغة الفرنسية:

4) Addi Lahouari « Le Nationalisme Algérien : origine et perspective» ,
le quotidien d'Oran, 4 mai, 2009.

5) Bennoune Mahfoud, Esquisse d'une Anthropologie politique, ED ENAG, Alger, 1988.

6) Boukhobza M'hamed, Octobre évolution ou rupture ?, ED Bouchene 1989.

7) Bourdieu Pierre, Abdelmalek Sayad, Le déracinement, ED de minuit, Paris, 1964.

8) Harbi Mohamed, l'Algérie et son destin, croyant ou citoyen, ED Arcantere, 1992.

9) Kaddache Mahfoud, Histoire du nationalisme Algérien, 2ED ENAL, Alger, 1988.

10) Kaddache Mahfoud, Jilali Sari, l'Algérie dans l'histoire, OPU 1989.